### يقع الزائر لمدينة عكا القديمة في حبها من اول نظرة: ذكريات ومواجهات في مدينة «الرمل»

# سكانها الفلسطينيون مهددون.. في بيوتهم الآيلة للسقوط ويتساءلون عن سبب تخلي العرب عنهم

# امام «مسجد الجزار» يحذر من انصهار الشبان في المجتمع الاسرائيلي وكل شيء في المدينة القديمة يذكر بالهوية

سعيد الغزالي

يقع الزائر لمدينة عكا القديمة، في حبها، من أول نظرة. يأسره عبق تاريخي في أسوارها وقلعتها وخاناتها وأسواقها ومساجدها وكنائسها، ومدينتها الصليبية.

في السادس عشر من أيار (مايو)، عام 1948، طوت عكا تاريخا حافلا، يمتد خمسة آلاف عام. وسقطت بأيدي القوات الإسرائيلية، بعد نفاذ الذخائر والطعام لدى من تبقى من المقاومين. انتظر المقاومون طويلا نجدة الجيوش العربية التي بدأت تدخل فلسطين. ولم تصلهم النجدات الموعودة. فر الثوار. وشكل الاهالي وفدا من الوجهاء، ورفعوا الأعلام البيضاء وتقدموا نحو مركز الشرطة، مستسلمين.

#### يعني اسمها الرمل

مدينة كنعانية– فينيقية كابدت المحن من الغزاة، قهرتهم وقهروها.

يعني إسمها الرمل الحار، ويعود تاريخها إلى الألفية الثالثة قبل الميلاد. إنه تاريخ حافل بالغزاة.

في عام 1479، قبل الميلاد احتلتها الجيوش المصرية بقيادة تحوتميس، وكان الفتح الاسلامي لها بقيادة شرحبيل بن حسنة في القرن السابع الميلادي، واستولى عليها أحمد بن طولون، احد الأمراء الاتراك في العهد العباسي في القرن التاسع. وسقطت عكا بأيدي الصليبيين في أوائل القرن الثاني عشر، وأصبحت ميناء رئيسياً لمملكة القدس اللاتينية. أعادها إلى الحكم العربي الحاكم المملوكي الاشرف خليل بن قلاوون في أواخر القرن الثالث عشر (1291م). واحتلها الاتراك العثمانيون في القرن السادس عشر. وفي منتصف القرن الثامن عشر (1750)، سيطر عليها الظاهر عمر الزيداني حيث اتخذها عاصمة له. ويعتبره أهالي عكا أول حاكم عربي يحكم المدينة، ويبني أسوارها الداخلية. هزمه أحمد باشا الجزار، واستولى عليها، لصالح الدولة العثمانية. وقام الجزار بترميمها وبناء أسوارها الخارجية. حاصرها نابليون لمدة 62 يوما، وانكسر على أسوارها في عام 1799. واحتلها إبراهيم باشا من إبن الجزار لمدة ثماني سنوات. ووقعت تحت الانتداب البريطاني في الفترة بين 1920ـ1948.

تعيش المدينة مكابدة، قد تكون الأخطر في تاريخها، خصوصا بعد العدوان الإسرائيلي على لبنان.

#### البلدة القديمة

كان الصياد محمد عيد جالسا امام حانوته في السوق. وكان منهمكا في وضع طعوم من سمك الاخطبوط في الشباك ليجهزها للصيد، قبل ساعات من بدء رحلته، في الواحدة صباحا، حيث يستقل قاربه «سعادي» وينطلق مع ابنه سليمان إلى بحر عكا.

ـ كيف الأحوال؟

أجاب عيد

ـ «الرزق قليل جدا هذه الأيام. كبوا مواد كيماوية في البحر. والسمك بيهرب».

وقلة الرزق ناتجة عن القيود على مناطق الصيد في عكا. بوابات البحر ليست مشرعة على مصراعيها لنحو 300 صياد عكاوي، يمتلكون 70 حسكة ولنشا ومركبا. معظمها مراكب قديمة. وليس لديهم معدات لرفع المراكب المعطلة إلى اليابسة.

ليست هناك أسواق خارجية للأسماك، خصوصا سوق قطاع غزة المغلق منذ بدء الانتفاضة عام 2000، الذي كان صيادو عكا يصدرون إليه أسماك السردين الرخيصة الثمن. وهناك قيود واجراءات تجعل امتهان الصيد من الأمور الصعبة.

يدفع عيد خمسين دولارا وقودا للحسكة يوميا. ويجب أن يصطاد على الاقل 15 كيلو غراما من السمك الجيد النوع حتى يسدد مصاريفه، ويكسب قوت يومه.

ولا يتلقى الصيادون أية معونات من الحكومة.

مات والده وهو شاب. كان عمره 51 عاما. كان عيد يتحدث وكأنه إبن الستين، هده الزمن الصعب، رغم أن عمره كان 45 عاما فقط.

يقول

«من يشتغل في البحر لا يعيش طويلا. البحر يجعل الصياد عصبيا متوترا. ويتعرض الصياد للبرد الشديد كل يوم. يمرض ويموت صغيرا».

يضيف «مهنتنا تزداد تدهورا. هذا يزيد قلق الصيادين».

أثناء الحرب الأخيرة، وانهمار الصواريخ، منع الصيادون في عكا من دخول البحر. انقطعت ارزاقهم، وجمعت تبرعات غذائية لهم، تنقذهم من غائلة الجوع، لأنه ليس لديهم مدخرات يعتمدون عليها في أيامهم السوداء.

يشتهر صيادو عكا بأنهم من أشجع الصيادين وأمهرهم.

حدث ذلك مؤخرا. غرق طفل وشقيقته من عائلة خلايلة في مياه بحيرة طبريا ليلا. هب عشرة صيادين من عكا، لاخراجهم. لكن ضابط فرقة كوماندو أرسلت إلى المكان بدعم مروحية عسكرية، منع الصيادين من الغوص. بعد عدة ساعات من البحث، عجز الكوماندو الاسرائيلي عن إخراجهم.

تمكن صيادو عكا من إخراج الجثتين.

قال الضابط الإسرائيلي لعضو الكنيست عباس زقوت «كل الاحترام لصيادي عكا، إنهم أقوى من قوة الكوماندو».

يضيف زقوت الذي روى ما حدث «ليس فقط الصيادين في عكا أقوى من الكوماندو، لقد رأينا رجال حزب الله في لبنان، كانوا أقوى من الكوماندو الإسرائيلي».

لم تكن مهنة الصيد وحدها المتدهورة، بل هناك تدهور شامل في حياة الناس في عكا، كما يقول زقوت.

هناك ثلاث إعلانات ملصقة على الجدران، في ثلاث حارات. يعلن أصحاب البيوت عن رغبتهم في بيعها. والمشترون الذين يملكون المال هم سماسرة يعملون لدى شركات أجنبية. والتطوير الذي يجري في المدينة هو لصالح السياحة، كما تراها شركة تطوير عكا الاسرائيلية. تطوير يطمس أو يخفف الآثار العربية الإسلامية في المدينة.

جاء الرد على الطمس من الحركة الإسلامية من خلال عشرات الملصقات على جدران معظم حارات البلدة القديمة، تدعو المواطنين إلى التمسك بالدين وأداء الصلوات. تحثهم على الاعتزاز بدينهم، وتطالب المرأة بارتداء الحجاب.

يخطب الشيخ الشاب سمير عاصي، إمام مسجد الجزار، في صلاة الجمعة، داعيا أهالي مدينة عكا إلى المحافظة على الوجة الحضاري العربي في المدينة.

يقول الشيخ عاصي، بعد أن أنهى خطبة الجمعة، أمام عدة مئات من المصلين:

«أريد أن أؤكد أن الدين في فلسطين هو جزء من الهوية العربية الفلسطينية. هناك إقبال على الدين من الشباب».

لكنه يعترف أن هناك المئات من الشباب انصهروا في المجتمع الاسرائيلي.

يضيف الشيخ عاصي «هناك احتلال ثقافي يغزونا، بالاضافة إلى احتلال الارض. ولا نملك الوسائل لمقاومته».

يشكل المواطنون العرب ثلث سكان المدينة. يقطن نحو سبعة آلاف مواطن عربي، داخل البلدة القديمة، وثمانية آلاف عربي خارجها. يعيشون جنبا إلى جنب مع اليهود في أحياء مختلطة.

ليس لليهود وجود داخل البلدة القديمة، لكن جمعية تطوير عكا، وجمعية عميدار الإسكانية تمتلكان بيوت المدينة. يقطن العرب بيوتا مستأجرة من حارس أملاك الغائبين، بعد أن يدفعوا ثلث قيمة البيت، بالاضافة إلى قيمة الإيجار الشهرية. ومن كان يملك بيتا منذ قبل عام 1948، لا يدفع شيئا، لكن وريثه يدفع ثلث قيمة البيت والإيجار، إن أراد أن يستمر بالعيش في بيت عائلته.

وضعت إسرائيل يدها على 95 بالمائة من أملاك الفلسطينيين الذين هجروا من مدينتهم خلال النكبة. وتمكنت الدولة من أن تستملك قصورا وأبنية خاصة وعامة مجاورة للبحر. وضغطت على الناس وشجعتهم للسكن خارجها، وخاصة في قرية المكر، حيث بنت فيلات، وباعتها لهم بأسعار زهيدة. فالدولة لديها خطط لتحويل عكا إلى متحف كبير لجذب السواح إليه.

ومنذ سنوات خلت، منعت الدولة العكاويين من ترميم بيوتهم، وذلك لإرغامهم على تركها. ونجحت إسرائيل في مسعاها، فخرج نحو ستة آلاف مواطن من عكا. مؤخرا، سمحت الدولة للمواطنين بترميم بيوتهم. ولا يستطيع مالك البيت توريث بيته لابنه، دون أن يدفع هذا الابن ثلث قيمة البيت إلى الدولة. مما جعل الاجيال الشابة تغادر المدينة.

يقول يعقوب حجازي، مدير مؤسسة الأسوار الثقافية، «عكا القديمة، مدينة الدور التي تنذر أهلها العرب بالموت، في كل لحظة. جدران بيوتهم آيلة للسقوط. أهل عكا يدفعون الثمن. انهار بيت وقتل صاحبه قاسم أبو خزنة. سقط جدار وقتل مواطن آخر. بيوت عكا لا تدخلها الشمس. هناك نحو 178 بيتاً آيلاً للسقوط في المدينة. وهناك ترميم لبعض البيوت، لكنه ترميم ضعيف، وميزانيات الترميم ضئيلة».

تكاد تخلو المدينة من المؤسسات العربية، غير المرتبطة بالدولة، باستثناء جمعية أسوار عكا التي تعنى بالمحافظة على هوية المدينة الثقافية، وجمعية ترميم عكا. ومؤسسة أخرى تعنى بخريجي الجامعات. تدعم هذه الجمعيات بتبرعات محلية. ولديها بعض الدعم الاوروبي. ولا يوجد مال عربي لدعم الهوية العربية في المدينة. هناك دعم شحيح.

يقول حجازي ان الشيخة موزة، حرم حمد بن خليفة آل ثاني، امير دولة قطر، قد تبرعت لتجهيز مدرسة بأجهزة الحاسوب.

«إننا نشكر سمو الشيخة على تبرعها، لعلها تشجع الآخرين على أن يتبرعوا أكثر».

وهناك تغييب للوعي القومي بين صفوف الشباب. فالمجتمع لا يمتلك الوسائل كالنوادي العربية الخاصة بالنشاطات الثقافية والاجتماعية التي تربطهم بجذورهم وتاريخهم.

البطالة بين المواطنين العرب في المدينة تزيد عن 50 بالمائة، أكثر بأضعاف من نسبة البطالة بين اليهود، لأن الحكومة تشترط أن يكون المواطن قد أدى الخدمة العسكرية في الجيش، للحصول على وظائف. ولا يخدم العرب بالعادة في الجيش الإسرائيلي. مئات الشباب يهربون من مشاكلهم إلى إدمان المخدرات، بحيث أصبحت عكا وكرا من أوكار تجارة المخدرات ومتعاطيها.

#### حرب صامتة

يقول زقوت، عضو القائمة العربية الموحدة، في الكنيست: «هناك حرب صامتة تشنها دولة إسرائيل ومؤسساتها ضد أهل عكا، وتجري الحرب على جبهتين: الاولى في الحجر، لطمس الوجه العربي فيها، والثانية متمثلة بالسياسات من أجل تهميش العربي، وتذويبه، وإغراقه في مشاكله المعيشية».

ففي جبهة الحجر، يجري تغييب متعمد للوجود العربي في عكا. فلا ترمم الاسوار التي بناها ظاهر العمر، ولا المساجد. بينما تهتم جمعية تطوير عكا بترميم المدينة الصليبية. واستبدلت أسماء الحارات العربية بأسماء صليبية.

يقول حجازي «السور الداخلي وخان الشونة اللذان بناهما ظاهر العمر مهملان. إنهم (أي جمعية تطوير عكا الإسرائيلية) يرممون الاثار الصليبية، ولا يرممون آثار المسلمين». لكن زقوت يعتبر أن المعركة من أجل تطوير الإنسان لها أولوية على ترميم الحجر. «لست متحمسا ولا داعما لترميم الأحجار. أولوياتنا يجب أن تتركز على بناء الإنسان والحفاظ على هويته». أثرت الحرب الأخيرة في لبنان تأثيرا سلبيا على أهل عكا، احدى المدن الخمس المختلطة، حيث يعيش العرب واليهود في نفس الأحياء، ويتعلم أبناؤهم في نفس المدارس، لكنهم، رغم التشدق الحكومي بشعار «التعايش بين الشعبين»، ينتمون إلى عالمين متضادين. فالتعايش الذي يعنيه الإسرائيليون هو تذويب الشخصية العربية، وتبهيت محتواها. يجري ذلك من أجل إضعاف الإنسان في عكا، وزعزعة انتمائه العربي، وتحويل مدينته، إلى مدينة بلا وجه عربي في الحجر، وبلا إنسان عربي صلب. رغم هذه الحرب ضد الحجر والإنسان، إلا أن الإنسان العكاوي أثبت أن ارتباطه بمدينة متين لا يمكن خلخلته.

#### هجرة عكسية ودعم عربي

تبقى في المدينة بعد النكبة ثمانية آلاف. بنت إسرائيل خلال عشرات السنين نحو 12 مستوطنة حول عكا. استوطن اليهود في احياء خارج الاسوار، إلى جانب العرب. تزايدت أعداد المواطنين العرب، وبلغت نسبتهم الان نحو الثلث.

في الوقت الحالي، هناك هجرة عكسية يقوم بها اليهود، وخصوصا بعد الحرب، لأنهم لا يطيقون العيش مع العرب في الاحياء المختلطة. ولا يريدون أن يعيشوا تحت خطر استئناف الحرب مع حزب الله، معرضين أنفسهم لمخاطر سقوط الصواريخ عليهم.

بعد حرب إسرائيل ضد حزب الله، تبرع إسرائيليون أغنياء للاولاد اليهود في المدارس المختلطة في مدينة عكا بـ80 دولاراً لكل طالب، لشراء قرطاسية للعام الدراسي الجديد. منح 25 دولاراً فقط لكل ولد عربي، بعد إلحاح واحتجاج من أعضاء البلدية العرب.

يقول زقوت: «جادلت المسؤولين بأن ما تفعلونه هو عنصرية. أجابوا: لماذا لا يتبرع لكم العرب في البلاد العربية؟». أضاف زقوت بمرارة: «لماذا يتخلى عنا إخواننا العرب؟»

الدعم العربي لأهل عكا، يصبح ضروريا وملحا، كما يقول وجهاء المدينة. ليس فقط بغرض التخفيف من مشاكل المواطنين، بل بغرض المحافظة على الهوية العربية.

يقول زقوت ستصبح غالبية المواطنين في عكا خلال عشر سنوات عرباً».

لكنه يضيف «إن في ذلك سلاحاً ذا حدين. فالعرب يجب أن يستعدوا لهذه المرحلة بتقوية أنفسهم اقتصاديا واجتماعيا، وبناء مؤسساتهم. نأمل أن يساعدنا أشقاؤنا في العالم العربي.

إن لم يفعلوا ذلك، ستسوء أوضاعنا أكثر. وستكون أوضاعنا أسوأ من أوضاع اللاجئين الفلسطينيين في لبنان».

#### حكايات أهل عكا

أمضى علي الجمل طفولته يتيما منذ العام الثاني من حياته. كان يتمه سببه نكبة عام 48، وليس وفاة والده. ترك أبوه وأمه عكا وأصبحا لاجئين في صيدا.

تألمت أمه لفراق عكا، وأهلها. أصرت على العودة، وقال لها زوجها: «إذهبي إلى أهلك وسألحق بك.»

يقول الجمل «سلكنا طرقا جبلية في طريق عودتنا إلى عكا».

منذ ذلك الوقت، لم يلتق علي بوالده إلا مرة واحدة. التقى به عند بوابة المندلبوم بالقدس عام 1965. توفي والده في عام 1973. ودفن في صيدا. زار علي قبر أبيه بعد الاجتياح الاسرائيلي للبنان بعد عشر سنوات على وفاته.

يقول علي الذي كان يجمع التبرعات من المصلين في مسجد أحمد باشا الجزار، أنه أمضى حياته، حزينا على فراق والده.

«لم أعرفه عندما التقيت به. التقيت به عدة ساعات، ثم افترقنا. لم أزره، عندما مرض. ولم أحضر جنازته عندما مات».

يضيف علي «لدي أعمام يعيشون في صيدا. لكني لم أرهم. ولم أعرف ماذا جرى لهم».

في عام النكبة، هجر (بالضمة على الهاء) نحو 12 ألف فلسطيني من مدينة عكا. وقد روعت أخبار المجازر في فلسطين سكان المدينه، فاستقل بعضهم قواربهم إلى لبنان، آملين أن يعودوا إلى عكا بعد أن تضع الحرب أوزارها.

#### طال الغياب. وقضى الأحباب نحبهم.

ربما تعتبر حكايات ألف ليلة وليلة، ذات الحس التراجيدي، في جوانب منها، من نسج الخيال المجنح بقواه الأسطورية. لكن حكايات أهل عكا، حكايات اللاجئين في الشتات، وحكايات المعذبين الباقين في المدينة فيها كثير من اللوعة والألم.

لم تغادر عائلة المواطن العكاوي حسن يونس المدينة، لكنه انخرط في النضال ضد الاحتلال. وحكم عليه بالسجن 26 عاما.

أمضى منها 12 عاما في السجون الإسرائيلية، قبل إطلاق سراحه في اتفاق تبادل الأسرى عام 1985. أنهكه الدهر. إنه يعمل حارسا في مسجد الجزار. أخرج يونس صورة تجمعه مع ياسر عرفات، التقطت له في رام الله.

«التقيت بالرئيس. حدثته عن عكا. أخذت لنا صورة تذكارية. وعدت إلى المدينة».

كان شقيقه أحمد يونس، 73 عاما، يجلس في السوق العتيق، إلى جانب بائع عصير الرمان. لا يزال يتذكر أيام النكبة.

يقول كان يعيش في عكا نحو 78 عائلة ممتدة. لم يتبق في المدينة بعد النكبة إلا 12 عائلة. يذكر يونس عائلات شلون، والادلبي والجمل والحتحوت ويونس والاسود.

«أنا كنت في بيت أهلي. دخلت قوات الهاجاناه المدينة. وهرب الناس. بقينا في عكا».

## فلسفة تطور العقل وتدرج الشرع

# تدرج الوحي جاء مراعاة للعقل الانساني.. بدءاً من العقل الاحيائي الى العقل التقابلي وانتهاء بالعقل البرهاني

# هل من سبيل لاحياء العقلية المقاصدية والنهوض بالعقل المسلم المعاصر والإقلاع في سماء التجديد والتطوير؟

د. عبد الحكيم الفيتوري*

■ هناك حقيقة في الخطاب الديني ينبغي معرفتها والتركيز عليها عند محاولة فهم إشكاليات الخطاب الديني، وممارسة عملية تفكيكه وتحليله وإعادة قراءته حسب مستجدات الواقع ومتغيرات الزمان وحاجات الانسان، وهذه الحقيقة تكمن في تصور قضيتين، القضية الأولى: رصد وفهم فلسفة تطور العقل البشري في أطواره المتعددة؛ من عقل إحيائي، مرورا بالعقل التقابلي، ومنه إلى العقل البرهاني، وصولا إلى العقل المقاصدي ؛الذي يعد بمثابة العقل الختامي في سلم تطور العقل البشري. القضية الثانية: فهم مقاصد تدرج الوحي، وعلّية نزال الشرائع باعتبار مراحل تطور العقل الانساني ضمن إطاره الزماني والمكاني. وأحسب أن فهم فلسفة هاتين القضيتين (تطور العقل وتدرج الشرع) يضعنا أمام إجابة منطقية لقضية انقطاع السماء عن الأرض بإرسال الرسل، وانزال الكتب منذ أكثر من أربعة عشر قرنا، أي منذ وفاة الرسول الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم وشريعته المهيمنة، حيث تكفل الله سبحانه بحفظ الشريعة الخاتمة (القرآن) كاملا وجعل العقل (المقاصدي) مناطا للتكليف فهما وتنزيلا، بمعنى أن تشكل العقل واكتمال أطواره حل محل الوجود الشخصي للرسول، أو ارسال الرسل بعده. وهذا يقودنا إلى أن فهم هذه المعادلة أمر ضروري وأس أساسي لعملية المراجعة الجادة والتجديد الحقيقي، وبدون فهم هذه المعادلة يصبح عمل المفكرين عملا انتقائيا من جهود الأسلاف في التاريخ، والرجوع بالعقل إلى أطواره الأولى بكونه آلة ناقلة تحفظ النصوص وتمارس عملية القياس على ما استقر من نتاج عقلي عند الأسلاف !!

لذلك فإن إدراك العلاقة بين تدرج الوحي وتطور العقل يعتبر من أهم القضايا المحورية التي تؤسس لفهم مطلقات خطاب الوحي عبر الواقع النسبي المتجدد، وهي لذلك قد شغلت عقول العلماء والمفكرين والفلاسفة منذ القدم، واتخذت اشكالا مختلفة، وانتحلت اسماء متغايرة، فهي قضية السمع والعقل، والنقل والعقل، والخبر والعقل، وهي قضية الرأي مقابل الحديث، والقياس مقابل النص، والفهم الظاهر مقابل التأويل، وهي قضية البرهان مقابل البيان والنظر مقابل العرفان. كذلك انقسم العلماء في تعريفهم للعلاقة بين الوحي والعقل في دائرة الفقه إلى مذاهب كالأحناف والشافعية، وفي دائرة التوجه العقدي إلى فرق كالخوارج والشيعة والسنة، وفي دائرة التصور إلى مدارس كالحشوية والمعتزلة والأشاعرة والفلاسفة. فالوحي بايجاز: هو المنزل من عند الله قرآنا يتلى، وهو أصل التشريع والتكليف، إذ كان ولم يكن شيء معه مذكورا، ويتألف هذا الوحي من نصوص قطعية الثبوت، فمنها ما هو قطعي الدلالة ومنها ظني الدلالة (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب، وآخر متشابهات)، ومن خصائصه أنه محفوظ في الألواح (بل هو قرآن مجيد، في لوح محفوظ) وقد تكفل الله سبحانه بحفظه (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)، وأنه لا اختلاف فيه (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا )، وأنه لا نسخ فيه، وأن ما نسخ منه قد رفع وأنزل بدلا منه (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها) وأنه مأمور بتدبره (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) وأنه يهدي للتي هي أقوم (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) .

كذلك فإن قيم الوحي الأخلاقية والقانونية في سنن الاجتماع البشري وسنن الكون مطلقة وليست نسبية ؛ بمعنى أن فهمها غير مقيد بإطار زمان ومكان وإنسان، وإنما تتنزل تلك القيم على الواقع والاشياء حسب فهم الانسان لها في إطار زمانه وحيز مكانه وتدافع حاجته، ولا شك أن تلك الفهوم البشرية لقيم الوحي والتي تجلت عبر تجادل الانسان مع واقعه في إطار زمانه ومكانه لا تضاهي قيم الوحي المتعالية في دلالتها ومقتضياتها، ناهيك عن أن تكون تلك الاجتهادات البشرية والتجارب العلمية معيارية تقاس عليها أفعال الخلف وأقوالهم !!

والعقل: هو الوصف الذي يفارق الانسان به سائر البهائم وهو الذي استعد به لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الخفية الفكرية .كما قال الحارث المحاسبي في حد العقل: (إنه غريزة يتهيأ بها إدراك العلوم النظرية وكأنه نور يقذف في القلب به يستعد لإدراك الأشياء ولم ينصف من أنكر هذا، ورد العقل إلى مجرد العلوم الضرورية .. ). ولا سيما وقد ظهر شرف العلم من قبل العقل، والعقل منبع العلم ومطلعه وأساسه. والعقل على هذا الأساس هو الآلة التي أنيط بها التكليف في هذه الحياة الدنيا، لمعرفة الخطاب التكليفي والوضعي، والكشف عن سنن الله ونواميسه في الكون والنفس، وبالجمع بينهما يتحقق للإنسان العاقل أهداف استخلافه في الأرض (إني جاعل في الأرض خليفة) ويسعد بالأمن والراحة في هذا الكون (من أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى).

واللافت للنظر أن الوحي تدرج في تنزيل الشرائع مراعاة لتطور العقل وتشكله واكتماله، ويمكن أن يلحظ هذا التدرج كل متدبر للقرآن الكريم حيث يجد أن التدرج بمعانيه الشاملة سنة ثابتة ؛ تدرج في الخطاب الاصطفائي، تدرج في الخطاب التكليفي، كل ذلك مراعاة لمراحل نمو وتطور مدارك العقل البشري في إطار تدافعه مع واقعه المعيش .

#### الخطاب الاصطفائي

ـ فمثلا في مراحل الخطاب الاصطفائي: كان الخطاب الإلهي ابتداء من آدم وانتهاء إلى محمد عليهم السلام خطابا(حصريا ) يقوم على (الاصطفاء ) ويتوجه إلى دوائر بشرية معينة كما قال تعالى: (إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم). فآدم أول البشر ارتقاء إلى مرتبة الاصطفاء بعد ما تدرج في مراتب الإنابة والتوبة (ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى). فكان هاديا مهديا وكان في ذريته من النبيين والمرسلين من شاء الله تعالى. وأما نوح عليه السلام فقد حدث على عهده ذلك الطوفان العظيم فانقرض من السلالة البشرية من إنقرض ونجا هو وأهله في الفلك فكان بذلك ابا ثانيا للجمع الغفير من البشر، وفشت فيهم الوثنية حتى ظهر فيهم إبراهيم عليه السلام نبيا مرسلا وخليلا مصطفى وتتابع النبيون والمرسلون من آله وذريته (ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا، ونوحا هدينا من قبل، ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون، وكذلك نجزي المحسنين، وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين، وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين، ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم).

وبعد انتشار الانحرافات المتنوعة في ذرية إبراهيم عليه السلام خاصة فيما بين اتباع موسى وعيسى عليهما السلام، وادعى كل واحد منهما أنه صاحب المنهج الإبراهيمي كما صوره لنا القرآن (وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا، قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين)، جاء الخطاب الإلهي يمهد لعملية الانتقال الاصطفائي من بني إسرائيل إلى بني إسماعيل، ومن قيادة بيت المقدس إلى بيت الله الحرام إلى المسجد الأقصى) حيث بشر موسى وعيسى عليهما السلام بهذه المرحلة النهائية من الأصطفاء (وإذا قال عيسى ابن مريم إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد )، فكان هذا الاصطفاء الأول من ذرية إسماعيل والبشرى بسيد الأولين والآخرين وخاتم النبيين والمرسلين محمد النبي الكريم صلى الله عليه وسلم (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين) ثم الاصطفاء المؤقت المرحلي للعرب من ذرية إسماعيل (وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون) (وانذر عشرتك الأقربين)، كل ذلك تمهيدا لإلغاء مرحلة الخطاب الاصطفائي الحصري والخلائفي وتأسيسا للخطاب العالمي الذي يشمل كافة البشر إلى يوم الدين (قل يا أيها الناس اني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السموات والأرض، لا إله إلا هو يحيى ويميت، فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون).

فكان هذا الخطاب العالمي إيذانا بإحلال المنهج الرباني عن ابتعاث الرسل والخطاب الاصطفائي (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله) وجعل الرسالة الخاتمة المنهج الرباني الخاتم مهيمنا على كافة الرسائل السماوية السالفة (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه) هيمنة احتواء واستعاب.

#### تدرج الوحي

ـ أما تدرج الوحي في انزال الشرائع حسب تطور عقل الانسان وحاجاته لضبط علاقته بغيره من بني الانسان، ومعرفة قوانين استعمار الأرض، فقد تجلى في قصة ابني آدم (واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق) ففي أحكام النكاح مثلا جاء في الأثر عن ناس من الصحابة، أن آدم كان يزوج ذكر كل بطن بأنثى الآخر. وفي أحكام القصاص وعقوبة القتل (قال لأقتلنك، قال إنما يتقبل الله من المتقين، لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك) فكانت عقوبة القتل آخروية (إني اريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار) ولكن بعد تكاثر الناس وتدافعهم في الحياة تنزل قوله تعالى (من أجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا) ثم قوله تعالى (وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس، والعين بالعين، والأنف بالأنف، والأذن بالأذن ). وهكذا الوحي في تدرج ملحوظ حسب تطور العقل البشري وحاجاته لضبط جدلية الحياة وتوفير الأمن، ثم نزل قوله تعالى (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا .. الآيات) لتأمين حياة الناس دولة ومجتمعا وعدم ترويعهم وتفزيعهم، ثم كانت (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما) لتوفير السلامة في الأموال والمتاع، ثم توالت الآيات التي تحكم علاقة الناس بعضهم ببعض بحسب ظروف بيئاتهم وتقلب معاشهم وتغير مساكنهم. ولا يخفى أن تدرج الوحي كان سمة بينة في القرآن الكريم، كما قال تعالى (وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا )، وفصلت السيدة عائشة رضي الله عنها ذلك بقولها: إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء : لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبدا، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبدا ... (البخاري)

ـ أما عن مراحل نمو وتطور العقل البشري فقد أشار الحديث الى أنه: (أول ما خلق الله العقل، فقال له: أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر. ثم قال الله عز وجل: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا أكرم علي منك، بك آخذ وبك أعطي وبك أثيب وبك أعاقب). ولا ريب أن هذا العقل قد مر بمراحل متعدد في إطار تعامله مع الأشياء والذوات والقيم، ففي مرحلة العقل الفطري كان التعرف على الأشياء والذوات (وعلم آدم الأسماء كلها) ولا فرق بين أن يكون تعلم هذه الاشياء جملة واحدة وعلى التفصيل أو أن يكون تعلمها بطريق البحث. ثم كانت مرحلة العقل الإحيائي الباحث عن العلاقة بين الأشياء من ناحية وبين الذات والقيم من ناحية أخرى كما يمكن تصوره من خلال الآية الكريمة (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم)، اي أن وحدة الأمة كانت فيما هو من مقتضى أصل الفطرة من الأخذ بما يرشد إليه العقل في الاعتقاد والعمل، فكان الناس يهتدون بعقولهم والنظر المحض في الآيات الدالة على وجود الصانع، ووجوب شكره، ثم كانوا يميزون الحسن من القبيح، والباطل من الصحيح، بالنظر في المنافع والمضار، أو الاتفاق مع ما يليق بالله ـ على حسب ما يرشد إليه العقل ـ أو ما لا يليق به سبحانه.

وفي تقديري أن العقل بمزاولته البحث عن الحسن والقبيح والباطل والصحيح يتجه إلى العقل التقابلي الذي يقوم على أساس النظر إلى الأشياء من خلال المقابلات بين الأشياء والقيم كما جاء ذلك في آيات كثيرة منها (إنا نحن نحيي ونميت) (أم له البنات ولكم البنون) (فلله الآخرة والأولى)، (وأنه هو أضحك وابكى )، وهذه النقلة ما بين العقل الفطري ثم الإحيائي ثم التقابلي كانت خاضعة لسنن التدرج في الفهم والتعلم وتنوع الشرائع كما أشارت إلى ذلك الآيات (ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون )، (وعلمك ما لم تكن تعلم) (ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل).

#### احياء العقلية المقاصدية

وأحسب أن ذلك كان تمهيدا لتحول العقل من عقل تقابلي إلى عقل برهاني باحث عن كل شيء بالبرهان والمنطق والاستدلال كما تجلى ذلك في قصة إبراهيم عليه السلام وتعامله مع (القلق المعرفي) حين تعرف على الله سبحانه من خلال ملكوته (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ... فلما جن عليه الليل رأى كوكبا، قال هذا ربي، فلما أفل قال لا أحب الآفلين، فلما رأى القمر بازغا، قال هذا ربي ... فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي، هذا أكبر...)!! كذلك لما طلب إبراهيم عليه السلام معرفة فلسفة الإحياء والإماتة (وإذا قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى، قال أولم تؤمن، قال بلى ولكن ليطمئن قلبي..)، وأيضا في استخدامه لأساليب المناظرة والدفاع عن حقائق الإيمان والغيب (ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن اتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت، قال أنا أحيي وأميت، قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب).

وعلى أرضية العقل البرهاني والمنطقي الاستدلالي ( قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) كانت دعوة القرآن الكريم إلى التفكر والتدبر، ومعرفة المعاني ودلالات الألفاظ، تمهيدا للمرحلة الأخيرة من مراحل تطور العقل وتدرج الوحي، والتي تعد بحق العمدة في فلسفة تطور العقل وتدرج الشرع، وذلك بتأسيس العقل المقاصدي الذي يدرك ضوابط العلاقات الجدلية بين فهم دلالات النصوص ومقاصد الوحي، وبين متغيرات الواقع ومستجدات التدافع البشري.

وحين وصل العقل الى طوره النهائي واكتمل في أحسن تقويم حيث صار عقلا مقاصديا يحسن التعامل مع العلاقة الجدلية بين الثابت (= مقاصد النصوص ) والمتغير (= الواقع المتجدد) بعقل مقاصدي يلتزم دلالات الأحكام ومقاصدها لا حرفيتها، ويتعاطى مع كلياتها ويراعي جزئياتها، ويعتبر حركية الواقع لا سكونيته، وتجدد حاجات الانسان لا تحنطها عند حاجات الماضي!!

ولما تمت